﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾

[يوسف: 14]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لم يَرحموا حُزنَ أبيهِم وخوفَه، بـلْ أصـرُّوا عـلى الاحـتـيـالِ بالقَسَم

في مناسبةِ هذه الآيةِ لِما قبْلَها وجهان:

الأول: بعد أنْ أكّد لهم يعقوبُ شدّةَ خوفِه على يوسفَ من أنْ يذهبَ معه أبَوْا إلّا المراجعةَ فقالوا: ﴿لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾[1].

الثّاني: بعد أنْ ذكرَ أبوهم حُزنَه على فراقِه، وخوفَه منَ الذِّئب أنْ يأكلَه، وأكّدَ حِرصَه عليه، وخشيَ غفلتَهم عنه جاءَ جوابُ أبنائه في هذه الآية يُقْسمون أنَّهم يدٌ واحدةٌ، وأنَّهم خاسِرون وخائِبون إنْ أكلَه الذِّئبُ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَكَلَهُ﴾: فعلٌ ماضٍ منَ الأكل: وأصلُ معناه: التَّنَقُّصُ[3]، والمعنى المحوريُّ طَحْنُ الحيّ المادّةَ المطعومةَ مَضْغًا بفمه وبلعُها: كالأكل المعروف، ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ [المائدة: 3]، ومعناه هنا: الإخبارُ عن هلاكِه؛ حتّى لا يُسأل عن بقيّته، كما سيأتي في الإيضاحِ اللُّغويِّ والبلاغيِّ.

2) ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾: أصلُ (خسر) يدلُّ على النَّقْص، يُقال: خَسَرْتُ الميزانَ وأخْسَرْتُهُ، إذا نَقَصْتَهُ[4]، وخَسِرَ التّاجِرُ: وُضِعَ في تِجارَتِه أو غُبِنَ، والأول هو الأصل، وصفقةٌ خاسرةٌ: غير رابحةٍ، وكَرَّةٌ خاسِرةٌ: غيرُ نافِعةٍ، والخَسارُ والخَسارة: الضَّلالُ والهَلاكُ[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/232.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/27.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أكل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خسر).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خسر).

ومعنى خاسرون في الآية: عجَزةٌ ضعفاءُ مغبونون جاهلون بحقِّه، أو لَعاجزون[1]، أو لَخائبون في اعتصابنا، أو لَهالكون لا يصحُّ أنْ نُعدَّ منَ الأحياءِ الذين يُعتدُّ بهم، ويُركنُ إليهم[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أسـلـوبٌ ماكرٌ مؤثّرٌ لنفي خاطرِ خـوفِ يعقوبَ على يوسُفَ عليه السلام

قال إخوةُ يوسفَ لأبيهم يعقوبَ: مُقْسمين له لئن أكلَ يوسُفَ الذّئبُ في الصّحراء، ونحن جماعةٌ قويّةٌ كثيرةٌ جديرةٌ بأنْ تُعصبَ بنا الأمورُ العظامُ وتُكفى الخطوبُ بآرائنا وتدبيراتِنا إنّا إذًا لهالكون[3]؛ لهالكون ضعفًا وخوَرًا وعجزًا، أو مستحقّون للهلاك؛ إذ لا غَناء عندَنا ولا جدوى في حياتنا، أو مستحِقّون لأنْ يُدعى علينا بالخَسار والدّمارِ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الفضْل في قولِه: ﴿قَالُواْ لَئِنْ﴾:

خوفُ الأبِ قابلَهُ جـوابُ المُطَمْئِنِ الحريصِ

فَصَل البيانُ القرآنيُّ قولَه تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ عمّا قبلَه: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾، ولم يأتِ بينَهما بعاطف؛ لِما بينهما من شبْهِ كمال اتّصالٍ؛ إذ وقع قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ استئنافًا بيانيًّا، وكأنَّ سائلًا يسألُ: فماذا أجاب أبناءُ يعقوبَ، فأتى الجوابُ: ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي قالوا: إنَّهم بقوَّتِهم وعصبتِهم وتكاتفِهم وأخوَّتِهم سيمنعون أخاهم منَ الذِّئب، فكانت الآيةُ كلامًا مستأنَفًا واردًا من إخوة يوسفَ لأبيهم عندما أخبرَهم أنَّه يحزنُه ذهابُ يوسفَ معهم ويخافُ عليه الذّئبَ[5].

(1) الثعلبي، الكشف والبيان: 5/201، والبغوي، معالم التنزيل: 2/479، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/141.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/219.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/573.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/258.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 10/27.

السِّرُّ في اقتصارِهم في الجواب على الثَّاني دونَ الأوَّلِ:

في نفْيِ الخوفِ على يوسفَ منَ الـذِّئـب، نفيٌ للحُزنِ عليه من يعقوبَ

عبَّر يعقوبُ عن رفضِهِ إرسالَ يوسُفَ بأمرين اثنين: الحزنِ على فراقه، والخوفِ عليه منَ الذِّئب، فأجابَ أبناؤه عنِ الثّاني كي يلينَ قلبُ الأبِ لإرساله، مُؤكِّدين ذلك ليُطيِّبوا خاطرَه، ولأنَّ الخوفَ عليه منَ الذِّئب هو السَّببُ القويُّ في المنعِ دونَ الحزنِ؛ لقصرِ مدّتِه بناءً على أنَّهم يأتون به عن قريبٍ[1]. وجوابُ الأول - لو أجابوا - سيُبدي حقدَهم ومكرَهم؛ لأنَّهم سيعاتِبون أباهم ويلومونَه، كيف نذهبُ نحن ولا تحزنُ على فراقنا، وأنتَ لا تستطيعُ أنْ تصبرَ على بُعدِ أخينا يوسفَ عنك، وهذا سيدفعُ أباهم كي يمتنعَ أكثرَ ويزدادَ حرصًا على أخيهم الَّذي يريدون التّخلّصَ منه، أو لأنَّ حزنَه بالذَّهاب به إنَّما هو للخوفِ عليه، فنفيُ الثَّاني يدلُّ على نفي الأوَّل، أو لكراهتِهم لذلك لأنَّه سببُ حسدِهم له، فلذلك أعاروه أذنًا صمّاءَ[2]، أو لأنَّهم يعلمون أنَّهم سيُدْخِلون على أبيهم الحزنَ لا محالةَ؛ لأنَّهم خطّطوا ودبَّروا وبقي تنفيذُ المكيدةِ بيوسفَ والتَّخلّصُ منه.

دَلالة اللّامِ في ﴿لَئِنْ﴾، والتَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿أَكَلَهُ﴾:

تأكيدٌ وتطْمينٌ ليعقوبَ بأنَّ يوسفَ سيكونُ في أمانٍ وسلامٍ

اتَّجه العلماءُ في تفسير اللَّام اتِّجاهَين: **الأوَّلُ**: أنَّ ﴿لَئِنْ﴾ تفيدُ كونَ الشّرطِ مُستلزِمًا للجزاء، بمعنى: إنْ وقعتْ هذه الواقعةُ فنحن خاسرون، ومن ثَمَّ فإنَّ اللّامَ جاءت قبل (إنْ) لتفيدَ تأكيدَ هذا الاستلزام[3].

والثَّاني: اللَّامُ مُوَطّئةٌ للقسمِ المحذوفِ والمضمَرِ قبلَها، وتقديرُه: (واللّه لئن أكله الذِّئب لكنَّا خاسرين)[4]، وغرضُ لامِ القسم تأكيدُ الجواب، وهو ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/258.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/454.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/426.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/449، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/258، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/232.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/232.

وعبَّر البيانُ الإلهيُّ عن فعلِ الشّرطِ بالماضي ﴿أَكَلَهُ﴾ بعد أداةِ الشّرط (إنْ) التي لا يكونُ التّعليقُ بها إلّا في مُبهم مشكوكٍ فيه[1]؛ للدّلالةِ على أنّ هذا الفعلَ لا يكونُ ماضيًا (لفظًا ومعنًى)، وإنّما يكونُ ماضيًا (لفظًا فقط) والمعنى هو المستقبلُ، ولكنَّ مجيءَ الفعل بصيغة الماضي واقعًا في جُملةٍ شرطيَّةٍ ابتدأتْ بـ ﴿لَئِنْ﴾ وتضمّنتْ لامَ القسم يُراد به كنايتهم عن عدمِ تفريطِهم فيه، وعن حفظِهم إيَّاه؛ لأنّ المرءَ لا يرضَى أنْ يوصفَ بالخسران[2]، والمعنى: أنَّ الخسارةَ واقعةٌ بهم لا محالةَ إذا أكل الذِّئبُ أخاهم.

وللمطابقة بين اللَّفظ والمعنى، فالخسارةُ لا تكونُ إلَّا إذا أكله الذِّئبُ، وهذا لا يكون إلَّا في المستقبل، فيصبحُ الأكلُ بالنِّسبة للخسارة منَ الماضي، يقول الدُّسوقيّ: "فلا يحتاجُ إلى التَّحويل لصيغة الماضي إلَّا لو كان الإخبارُ بذلك الفعلِ صادرًا ممَّنِ التَّخلفُ في إخباره؛ لأنَّه إذا كان كذلك يحتاجُ إلى التَّعبير بالماضي زيادةً في تأكيد تحقُّق الوقوع"[3].

فائدةُ قولِهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ وإعرابُه:

يحتمل قولُه تعالى: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ وجهَين منَ الإعراب:

تأكيدُ حفظِهم لأخيهم يوسفَ وعدمِ التّفريطِ به بين الجُملةِ الحاليّةِ والاعتراضيّةِ

الأوّل: حاليَّةٌ، لتعبِّر عن حالهم هذا؛ فبِهم تُعصَبُ الأمورُ وتُكفَى الخطوبُ[4]، وفائدةُ ذلك مزيدُ تأكيدٍ لأبيهم الحزين الخائفِ بأنَّهم سيمنعون أخاهم منَ الذّئب بقوَّتهم وكثرتهم، وكأنَّهم يذكِّرون أباهم بأنَّ ابنَك لن يكونَ وحدَه، بل سيكونُ معنا، وسنمنعُه ممَّا نمنعُ به أنفسَنا، وسنتكاتفُ في سبيل ذلك، فإنْ حصل غيرُ ذلك وأكلَه الذّئبُ فستكونُ خسارةٌ ما بعدَها خسارةٌ.

(1) ابن نور الدين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 84.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/232.
(3) الدسوقي، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني: 2/109.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/427.

الثاني: معترضةٌ بين القسَم وجوابِه[1]، فالأصلُ أنْ يقول: لئن أكله الذّئبُ إنّا إذًا لخاسرون، فجاءتْ ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ اعتراضيَّةً؛ لتعطيَ هذا المعنى المُهمَّ، الَّذي يحتاجُه الوالدُ لتسريَ الطُّمأنينةُ إلى قلبه، ويقبلَ بأنْ يرسلَ ولدَه معهم، ومن فوائدها أنّها يُؤتَى بها تأكيدًا وتسديدًا للكلام الذي اعترضتْ بين أجزائه، أي تأكيدُ حفظِهم وعدمِ تفريطِهم بيوسفَ.

بَلاغةُ قولِه في جواب الشّرطِ: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾:

في تأكيدِ خُسرانِهم تطمينٌ لقلْبِ أبيهم وإقناعٌ له بإرسالِ يوسُفَ معهم

تمثّلت البلاغةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ في عدّة أمورٍ:

أوّلاً: موقعُ الجملة الذي يحتملُ أن يكون جوابًا لـ (إن) الشّرطيّة وفعلِ الشّرط في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، وقد تضمّنتِ الجملةُ الشّرطيّةُ لامَ الابتداء، وإذًا الجوابيّة: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ بما يفيدُ تحقيقَ حصولِ خُسرانِهم على تحقيق حُصولِ الشّرط.

أو أنْ يكونَ جوابًا للقسَم الذي سدَّ مسدَّ جزاءِ الشّرط، وهذا ما اختاره الزّمخشريُّ[2]، وفي كلا الاحتمالَين تأكيدٌ لحمايتِهم يوسفَ عليه السلام، وتطمينٌ ليعقوبَ كي يرسلَ معهم يوسفَ.

ثانيًا: اشتمالُ الجملةِ على عدّة مؤكِّداتٍ، وهي: (إنّ) التي تفيدُ توكيدَ الخبر، وهو خسارتُهم إنْ أكلَ الذّئبُ يوسفَ، ومجيءُ ﴿إِنَّآ﴾ بصيغةِ الجمعِ؛ إذ خسارةُ الجمعِ أبعدُ من خسارة الواحدِ، وخاصّةً أنّهم عُصبةٌ، والتّوكيدُ بالجملةِ الاسميّةِ، التي تَدلُّ على الثّباتِ والقوّةِ، أي هي خسارةٌ ثابتةٌ ملازمةٌ لنا إنْ أكله الذّئبُ، وكذلك التّوكيدُ باللّام المُزحلقةِ، والتّوكيد باسْمِ الفاعلِ ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾ الذي يدلُّ على حدَثٍ ثابتٍ غيرِ محدَّدٍ بزمن، فيشملُ خسارةَ الماضي والحالِ والمستقبلِ، وخاصّةً أنّه أتى في سياقِ الجملةِ الاسميَّةِ.

(1) الهمذاني، الكتاب الفريد: 3/556.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/449.

فكلُّ هذه المؤكِّداتِ مجتمعةً تفيدُ مبالغتَهم في التّأكيدِ على عدمِ تفريطِهم بيوسفَ، حيث ربطوا استحقاقَهم للخسارة بأكل الذّئبِ ليوسفَ، والتّأكيدِ على حفظِهم له بما يُدخلُ الطّمأنينةَ في قلب أبيهم رجاءَ الموافقةِ على إرسالِه معهم.

ثالثًا: التَّعبيرُ بمُفردةِ ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾، التي تتّسمُ بتعدّدِ معانيها وسَعةِ دلالاتِها؛ فهي تدلُّ في أصلِ مادّتِها على النّقصِ[1]، وتدلُّ كذلك على عدمِ الرِّبح، وغيابِ النّفعِ، والوقوعِ في الضّلال والهلاك[2].

ولهذا أطنبَ المُفسّرون في تفسير معنى ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾ فذكروا من معانيها: هالكون ضعفًا وعجْزًا، أو أنْ يُدْعَى عليهم بالخسارة والدَّمارِ، أو أنْ يُحبطَ كلُّ ما قدّموه لأبيهم رجاءَ ثنائِه عليهم، أو مغبونون جاهلون بحقّه، أو عاجزون[3]، أو خائبون في اعتصابِنا، أو هالكون لا يصحُّ أنْ نُعدَّ منَ الأحياءِ الذين يُعتدُّ بهم، ويُركنُ إليهم[4]، أي: شملتْ خسارتُهم الخسارةَ المادِّيّةَ والمعنويّةَ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خسر).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خسر).
(3) الثعلبي، الكشف والبيان: 5/201، والبغوي، معالم التنزيل: 2/479، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/141.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/219.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 22 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-19-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 22 : المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-19-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3382819 بتاريخ 2024/02/13م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»